لغز حبل الرمال



محمود سالم

لغز حبل الرمال

تأليف
محمود سالم



لغز حبل الرمال

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٤٩ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٨١.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

صديقٌ جديد عجيب

على كورنيش النيل بالمعادي ... جلس «محب» و«نوسة» يأكلان «الجيلاتي» ويتحدَّثان، الجو حارٌّ جدًّا، ومياه النيل ساكنة كأنها مرآةٌ ضخمة لا أثَر لموجةٍ واحدة فيها ... والساعة تقرب من الثانية بعد الظهر.

قالت «نوسة»: لم يكن هناك داعٍ لأكل «الجيلاتي»؛ فموعدُ الغداء قد حانَ.

محب: بالنسبة لي هذه مشكلة ... فليس لي أي رغبةٍ في الطعام ... وستغضَب الوالدة طبعًا إذا قلتُ لها إنني لن آكل.

نوسة: أفضل حلٍّ أن نتغذَّى بِطِّيخًا مثلَّجًا وجُبنًا أبيض.

محب: حاولي إقناع الوالدة بذلك.

انتهيا من التهام «الجيلاتي» ... وقرَّرا العودة إلى البيت ... فقفز كلٌّ منهما إلى دراجته، وانطلقا عائدَين ... وما إن تركا الكورنيش واتجها إلى داخل المعادي حتى وقع بصرهما معًا على دراجة تسبقهما، يركبها ولدٌ يحمل خلفه صندوقًا متوسِّط الحجم، يُحاول أن يقود الدرَّاجة بيدٍ واحدة، وبالأخرى يسند الصندوق الذي خلفه.

كان واضحًا أن المحاولة فاشلة؛ فقد كانت الدراجة تتلوَّى به في الشارع، ويكاد يسقط بين لحظةٍ وأخرى. أكثر من هذا كان يُعرِّض نفسَه للسيارات المندفعة؛ فلو انثَنى يمينًا أو يسارًا بشكلٍ مفاجئ لصدَمتْه إحدى السيارات.

صاحت «نوسة»: إن الولد يُعرِّض نفسه للخطر!

اندفع «محب» بدرَّاجته حتى حاذى الولد وصاح به: ماذا تفعل؟ ... إنك تُعرِّض نفسك للموت، قف فورًا.

توقَّف «محب» قبل الولد ... ثم ركَن درَّاجتَه وأسرع إليه يسنده حتى يقف.

كان العرق يغمُر وجه الولد الأسمر الذي لوَّحَته الشمس، وقد بدا مُتعَبًا من أثَر المجهود الذي بذله ... فقال له «محب»: إلى أين أنت ذاهب؟

الولد: إلى شارع ٣٥.

محب: ما زال الطريق أمامك طويلًا، ومن الأفضل أن تربط الصندوق إلى دراجتك.

الولد: ليس عندي قطعةُ دوبارة لهذا الغرض.

محب: عندي قطعة من السلك القوي.

وأسرع «محب» إلى دراجته، وفتح المحفظة الجلدية الصغيرة المعلَّقة خلف الكرسي، وأخرج قطعة من السلك وعاد إلى الولد ... وقام بربط الصندوق ربطًا محكمًا على المقعَد الخلفي للدراجة.

ابتسم الولد وهو يُجفِّف عَرقَه قائلًا: أشكرك ... لقد تطوَّعتَ بمساعدتي دون أن تعرفني.

محب: إن المساعدة لا تحتاج إلى معرفة.

الولد: يَسرُّني أن نتعرَّف!

محب: اسمي «محب»، وهذه أختي «نوسة».

الولد: اسمي «نبيل أمين» ...

محب: سنسير خلفك حتى تصل إلى منزلك ... فقد يقع الصندوق.

نبيل: شكرًا ... إنَّ هذا فضلٌ منكما.

وقفَز الولد إلى درَّاجته، وانطلَق «محب» و«نوسة» خلفه ... وبعد عدة شوارع، وصل الولد إلى الشارع الذي يسكن فيه، ثم توقَّف أمام منزله، ومَرَّ به «محب» و«نوسة» ورفعا أيديهما بالتحية، ولكن «نبيل» صاح بهما: إلى أين؟

محب: إلى المنزل!

نبيل: تعاليا لحظةً واحدة ... إنكما لم تشاهدا ما في الصندوق!

ردَّ «محب» مبتسمًا: ولماذا نعرف؟

نبيل: إني سعيد جدًّا؛ فقد حصلتُ على شيء تمنَّيتُه طول عمري!

محب: مبروك.

نبيل: لا بد أن تأتيا ولو للحظاتٍ قليلة.

دافِع المغامرة وحبُّ الاستطلاع في «محب» دفَعاه إلى قبول دعوة «نبيل»، وقال لـ «نوسة»: هيَّا نرى.

نزلا أمام حديقةٍ رائعة التنسيق ... بها حمَّام سباحة ... وحول الحمَّام كانت عشراتٌ من العصافير المغرِّدة تتقافز في أقفاصها الزاهية الألوان.

أسرع «نبيل» بإنزال الصندوق بمساعدة «محب»، وجلس الثلاثة قُرب حمَّام السباحة الذي لفت انتباه «محب» و«نوسة»، فقال «نبيل»: يُسعدني في أي وقتٍ أن تأتيا للسباحة معي ... إنني أقضي أغلب أوقاتي في العَوْم.

نوسة: لا بد أنك سبَّاحٌ ماهر!

نبيل: ليس هذا فقط ... إنني أهوى الغوص ... وفي هذا الصندوق ملابس للغوص أرسلها لي خالي من أمريكا.

وأسرع «نبيل» يفتح الصندوق ويُخرج منه ملابسَ زرقاء داكنة للغوص وجهازًا للتنفُّس.

وصاح «نبيل» وهو يفرد الملابس بيدَيه: يا لها من شيءٍ رائع!

شارك «محب» و«نوسة» «نبيل» فرحته ... وأسرع «نبيل» يدخل إلى الفيلَّا الفاخرة التي يسكُن فيها، وعاد بعد لحظاتٍ وخلفه رجلٌ أسمر يحمل صينيةً عليها زجاجتا عصير ... وأخذ «نبيل» يتحدَّث بحماس عن هوايته: إنني أهوى الغوص والتصوير والصيد في الأعماق، إن عالم البحار عالمٌ مدهش، والناس عادةً لا يَرَون من البحر إلا سطحه، أما أعماقه فشيءٌ آخر ... شيءٌ مثير!

نوسة: إننا نُشاهِد في التليفزيون برنامج «عالم البحار» الذي يُقدِّمه الدكتور «جوهر»، وهو برنامجٌ رائع يكشف الكثير من أسرار الأعماق البعيدة للبحار وما فيها من مخلوقات!

نبيل: لقد سجَّلتُ أكثر حلقات هذا البرنامج على أشرطة «فيديو»، وأتفرج عليها يوميًّا تقريبًا ... إن شرح الدكتور «جوهر» يجعل من عالم البحار كتابًا مفتوحًا لسكان الأرض في أسلوبٍ علمي مبسَّط.

محب: وكيف أحببتَ البحر إلى هذا الحد؟

نبيل: أحبَبتُه من خلال رجلٍ عجوز، تصادقنا منذ زمنٍ بعيد، لقد كان يعمل عند أجدادي، وهم جميعًا من البحَّارة، وكانوا يملكون سفنًا ضخمة تحمل البضائع بين موانئ البحر المتوسط ... لقد كان جدي قبطانًا عظيمًا!

محب: إذن فقد وَرِثتَ حب البحر عن أجدادك.

نبيل: إذا كان مثل هذا الشعور يُورث فقد وَرِثتُه عنهم بالتأكيد.

محب: وأين هذا الرجل العجوز؟

نبيل: إن «عم سالم» يعيش في العجمي بالإسكندرية ... إنه مخلص لحبه الوحيد ... البحر ... وهو لا يستطيع أن يفارقه. وبالمناسبة، سوف أسافر بعد أيامٍ قليلة إلى هناك لأزور «عم سالم» وأقضي هناك إجازتي.

محب: وحدك؟

نبيل: نعم ... فوالدتي ووالدي مسافران لقضاء الإجازة في سويسرا.

نوسة: ولماذا لا تذهب معهما؟

نبيل: إنني أُفضِّل الإسكندرية على أي مكانٍ في العالم، حيث أستطيع ممارسة هوايتي في العَوم والغَطس والحديث إلى «عم سالم» والاستمتاع بسماع ذكرياته عن البحر ... وعن أجدادي.

نوسة: لا بد أنه عجوز جدًّا.

نبيل: نعم ... لقد تجاوَز التسعين، ولكنه ما زال قويًّا ونشيطًا، إن هؤلاء الناس الذين يعيشون على الشواطئ يتمتَّعون بالصحة الجيدة ويُعمِّرون طويلًا.

محب: إن هذا الرجل يشبه الأسطورة.

نبيل: حقيقة هو أسطورة؛ فقد عاش حياةً حافلة بالمغامرات والأحداث، إنه تاريخٌ متحرك.

نوسة: كم أَودُّ أن أراه ... إنني أُحبُّ هذا النوع من البشر!

نبيل: هذه مسألةٌ سهلة جدًّا ... لماذا لا تأتيان معي؟

نظر «محب» و«نوسة» كلٌّ منهما للآخر ... ثم قال «محب»: كنا نودُّ أن نأتي معك، ولكن نحن مجموعة من الأصدقاء، اعتَدنا أن نقضي الإجازة معًا، و...

وقبل أن يُكمِل «محب» جُملتَه قال «نبيل»: إنني أدعوكُم جميعًا لهذه الزيارة ... إن لدينا فيلَّا كبيرة عيبها الوحيد أنها بعيدة عن العمران، وربما لا تروق لكم الحياة فيها و...

محب: شكرًا لكَ ... وسوف أَعرِض الأمر على أصدقائي، وسآخذ رقم «تليفونك»، وأتحدَّث إليك هذا المساء.

حكاية النجمة الخضراء

عندما اجتمع المغامرون الخمسة في المساء كعادتهم لم ينتظر «محب» لحظةً واحدة ليتحدَّث إليهم بما عنده ... كان قد اقتنع بالفكرة تمامًا ... السفر إلى شاطئٍ مهجور ... مقابلة «عم سالم» العجوز ... حياة الشاطئ ... أعماق البحر ... كلها أشياءُ تستثير خياله، وتدفع دماء المغامرة إلى عروقه. وهكذا لم يكدِ الشمل يلتئم حتى وقف «محب» قائلًا في صوتٍ خطابي: أيها الأصدقاء، عندي ما أقوله لكم.

ردَّ «عاطف» ساخرًا: أرجو ألا تَروي لنا قصة حياتك العظيمة.

لم يهتم «محب» بضحكات الأصدقاء، بل استمر قائلًا: عندي لكم دعوةٌ لقضاء إجازةٍ مثيرة!

كانت «لوزة» أول المهتمِّين والمنتبهين ... فما دامت كلمة «مثيرة» قد استُخدمَت فإن خيال «لوزة» سيشطَح فورًا إلى الألغاز والمغامرات.

وهكذا ردَّت على الفور: إنني على استعداد.

ومرةً أخرى قال «عاطف» المرِح: ألا تنتظرين حتى نعرف أين؟

إن إجازة في «لبنان» مثلًا إجازةٌ مثيرة، فهل أنتِ على استعدادٍ للذهاب تحت وابل الرصاص والقنابل؟

ردَّت «لوزة»: بعنادٍ: ولماذا لا؟ نعم أذهب!

ظل «تختخ» ساكنًا ينتظر، وواصل «محب» حديثه قائلًا: لقد تعارفتُ اليوم أنا و«نوسة» على صديقٍ جديد يُدعى «نبيل»، وأُسرتُه تمتلك فيلَّا على شاطئ العجمي، وهو من هُواة السباحة والغوص، وله صديقٌ بحَّار عجوز كان يعمل عندهم، وهو رجلٌ مثير عنده عشرات الحكايات عن البحر والحياة فوق الأمواج.

تحدَّث «تختخ» لأول مرة سائلًا: هل أفهم أنه دعاكما للذهاب لقضاء إجازة هناك؟

محب: بالضبط!

تختخ: ولكنه دعاكما أنتما فقط، وليس كل هذه العصابة.

قال «محب» (منتصرًا): وهل تتصوَّر أن نذهب وحدنا؟ لقد قلتُ له إن لنا بقية.

عاطف: بقية في حياتك!

انفجر «محب» غاضبًا، وقال: كُنْ جادًّا لحظة! إننا نتحدَّث في موضوعٍ مهم!

ابتسم «عاطف» برغم ثورة صديقه، وقال: إننا لا نتحدث في أسعار البترول، ولا في مشكلة الشرق الأوسط، إنها مجرد إجازة، والضحك خيرُ رفيقٍ في الإجازات.

قال «محب» غاضبًا: أنا آسف ... لا داعي لإكمال حديثي.

وجلس «محب» ... وتكهرب الجوُّ لحظاتٍ، ولكنَّ «تختخ» سارع إلى إصلاح الموقف قائلًا: سأعتذر نيابةً عن «عاطف»، وأرجو أن تُكمل حديثك.

قال «عاطف» على الفور: إنني أعتذر إذا كان في كلماتي ما أساء إلى «محب»، وأرجوه أن يُكمِل حديثه ... فقد أسال لُعابنا.

وانضمَّت «نوسة» و«لوزة» مع «تختخ» و«عاطف» في تهدئة «محب»، الذي قبِل في النهاية أن يُكمل حديثه، فقال: لقد دعانا «نبيل» جميعًا لقضاء الإجازة في الفيلَّا التي يملكها والده في العجمي ... وهي على شاطئ العجمي في مكانٍ بعيد عن العمران ... وسنقضيها في السباحة وصيد السمك والاستماع إلى حكايات «عم سالم» العجوز!

تختخ: إنه ولدٌ كريم، وليس عندي أي مانعٍ من الذهاب، المهم أن يُقنع كلٌّ منا أُسْرته بذلك.

محب: لقد وعدتُه أن أُحدِّثه هذا المساء ... فهل أستدعيه؟

تختخ: ولماذا لا؟ إننا نودُّ التعرُّف عليه.

قام «محب» بالاتصال بـ «نبيل» الذي وعد بالحضور فورًا، ولم تمضِ ثلث ساعة حتى سمعوا صوت دراجته تقترب من باب الحديقة حيث يجلسون.

وقام «محب» بالتعريف بين «نبيل» وبقية المغامرين، وقال «تختخ»: لقد فهمنا من «محب» أنك تدعونا لقضاء إجازة معك ونحن نشكرك جدًّا ... ولكن أليس في هذا عبءٌ عليك؟

رد «نبيل» ببساطة: ليس هناك أي عبء، بل على العكس ... إنكم ستجعلون من هذه الإجازة وقتًا ممتعًا ... وأظنُّك توافقني على أن الإجازة يصنعها الأصدقاء.

تختخ: وما هي المدة المحدَّدة؟

نبيل: ليست هناك مدَّةٌ محددة، إن والدتي ووالدي سيقضيان إجازتهما في سويسرا ... وسيقضيان شهرًا!

تختخ: إن علينا بالطبع أن نستأذن أولًا.

نبيل: أكيد ... ولكن لا أدري إن كنتم تُحبُّون الأماكن القديمة والغموض والإثارة!

ابتسم «تختخ» وهو يقول: هذا عملنا!

نبيل: إذن ستستمتعون بالإجازة ... إن المكان الذي سنقضي فيه وقتَنا كان في الأصل ميناءً صغيرًا صنعه أجدادي أيام كانوا يعملون في البحر ... وهو ميناءٌ مهجور لم يبقَ منه سوى رصيفٍ واحد وفيلًّا قديمة وبعض المخازن.

وصمت «نبيل» لحظاتٍ، ثم قال: ويُقيم في المكان باستمرارٍ حارس، هو «عم سالم» العجوز، وهو بحَّارٌ قديم لا يستطيع الحياة إلا على شواطئ البحار، إنَّه يقضي وقته في صيد السمك وصُنْع الشباك.

عاطف: إنه جوٌّ ممتعٌ!

تردَّد «نبيل» لحظاتٍ، ثم قال: لا بد أن أُضيف شيئًا هامًّا ربما يكون له تأثير على قراركم! حدَث توتُّرٌ بسيط بين الأصدقاء، ومضى «نبيل» يقول: إن هذه المنطقة تشهد أحداثًا غامضة من الصعب معرفة حقيقتها!

ونظر إلى وجوه الأصدقاء، ثم قال: قريبٌ من هذا المكان تُوجد شبه جزيرة لا يمكن الوصول إليها عن طريق البحر ... إن الصخور المُوحِشة تُحيط بها من كل جانب، بحيث يصعب رَسْو أي سفينةٍ أو قاربٍ عليها!

تحدَّثتْ «لوزة» لأول مرة فسألَت: وكيف يمكن الوصول إليها إذن؟

نبيل: عن طريق البحر ... وهو للأسف مملوءٌ بالرمال المتحركة والمستنقعات والأشجار.

نوسة: هذا شيءٌ مدهش جدًّا!

نبيل: نعم ... وربما لا أستطيع أن أقول لكم كل التفاصيل حتى لا تتردَّدوا!

محب: على العكس ... لقد زدتَ من رغبتنا في السفر معك.

نبيل: إنني منذ سنواتٍ أُحاوِل الدخول إلى هذه الجزيرة الصغيرة أو شبه الجزيرة، ولكن «عم سالم» يمنعني تمامًا، خوفًا من أن يصيبني مكروه.

تختخ: إننا على استعداد لمساعدتك ... ولكن ماذا تريد من هذه الجزيرة؟

نبيل: إن لهذا قصةً طويلة ... لقد كان هناك نزاعٌ بين أُسرتنا وأسرةٍ أخرى تعمل في البحر، هي أسرة «ميرزا»، ولم ينتهِ هذا الصراع إلَّا بعد أن صفَّى جدي أعماله في البحر ... ولكنْ هناك شيءٌ هامٌّ!

وسرح «نبيل» لحظاتٍ ثم قال: إن آخر سفينةٍ من سفن جدي غادَرتْ فرنسا إلى مصر غَرقَت عندما أوشكَت على الوصول إلى الإسكندرية ... لقد حدَث انفجارٌ غامض فيها وهوَتْ إلى قاع البحر وهي تحمل ثروةً ضخمة من الذهب والمجوهرات ... لقد كانت هذه السفينة التي كانت تحمل اسم «النجمة الخضراء» هي أحب السفن إلى جدي، كانت كما يقولون تشبه عروسًا جميلة وهي تتهادى على المياه، وقرَّر جدي تصفية أعماله عندما قامت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، فقد وضع جزءًا كبيرًا من ثروته على هذه السفينة وأرسلَها إلى مصر ... ولكن «النجمة الخضراء» لم تصل إلى مصر مطلقًا كما قلتُ لكم. لقد حدث فيها انفجارٌ غامض قُرب الميناء الصغير، وغرقَت بما تحمل من ثروة جدي.

ساد الصمت بعد هذه القصة، وتخيَّل المغامرون «النجمة الخضراء» وهي تحمل كنوزها من فرنسا ثم تغرق، والصدمة التي أصابت هذه الأُسرة.

ولم يستمر الصمت طويلًا؛ فقد عاد «نبيل» يقول في صوتٍ غريب كأنه قادم من أعماق البحر: ومنذ أن سمعتُ هذه القصة قرَّرتُ أن أعثر على «النجمة الخضراء» مهما كلَّفني الأمر ... إنهم يقولون إنها غرقَت على عمقٍ بعيد، ولكنَّني سوف أعثُر عليها حتى لو دفعتُ حياتي ثمنًا لذلك!

سمكٌ بعيد عن البحر

ألهبَت هذه المعلومات خيال المغامرين الخمسة، وكانت «لوزة» كالعادة أكثرهم حماسًا، وهكذا وعدوا «نبيل» أن يتحدَّثوا إليه في صباح اليوم التالي بعد أن يحصُلوا على الموافقة، وفي الموعد المحدد كان «محب» يتصل بـ «نبيل» يقول له إنهم جاهزون للسفر معه.

قال «نبيل»: إنني سعيدٌ جدًّا ... وغدًا في الساعة السادسة صباحًا ستكون السيارة التي تحملنا إلى المكان جاهزة ... إنها ليست سيارةً مريحة، ولكن السيارات العادية لا تتمكَّن من السير على الأرض هناك ... لهذا سنستقلُّ سيارة من طراز «لاندروفر»!

محب: إننا اعتدنا على هذه الرحلات الشاقَّة!

نبيل: إذن إلى اللقاء أمام الحديقة التي زُرتكُم فيها.

وفي الصباح — في السادسة تمامًا — كان المغامرون جميعًا، ومعهم الكلب الأسود الذكي «زنجر»، يقفون أمام حديقة منزل «عاطف»، وظهرت سيارةٌ رمادية اللون من طراز «لاندروفر» يقودها سائق أسمر البشرة يجلس بجواره «نبيل»، وتبادل الجميع تحية الصباح، ثم قفزوا جميعًا إلى السيارة، واختار «زنجر» مكانًا في نهاية السيارة بجوار «لوزة» ... وأعمل السائق يدَيه وقدمَيه في أجهزة السيارة التي انطلقَت تقفز على الأرض.

كان الجوُّ رائعًا في هذا الصباح المبكِّر، ولم يكن هناك سوى حاجزٍ بسيط بين مقدمة السيارة ومؤخرتها. وهكذا أخذ الجميع يتبادلون الأحاديث المرحة، وبالطبع كان لـ «عاطف» النصيب الأوفر في الحديث، باعتباره أكثر المجموعة حبًّا للمرح والنِّكات.

ووصَلوا إلى «الرست هاوس» في السابعة والنصف، فتناولوا المثلَّجات ثم استأنفوا رحلتهم، وعندما أشرفَت الساعة على التاسعة كانوا قد انتهَوا من الطريق الصحراوي، ووصَلوا إلى بداية طريق العجمي، فانحرفَت السيارة يسارًا، ثم انطلقَت بين شاطئَين من المياه الضحلة حيث تكوَّنَت تلالٌ من المِلح الأبيض المشوب بألوان الطيف ... ثم صَعِدوا إلى

الطريق الممهَّد، وأصبح البحر إلى يمينهم، وهبَّت نسماتٌ طرية خفَّفتْ كثيرًا من الحرارة التي بدأَت تتزايد مع ارتفاع الشمس.

وبعد ساعة ونصفٍ من الوصول إلى طريق العجمي قال «نبيل»: الآن سننحرف إلى الممر الخاص الذي يؤدي إلى الميناء الصغير … وانحرفَت السيارة، وبدأَت تقفز كالضفدعة فوق الأرض غير الممهدة … وكانت أشجار التين الواطئة تُغطِّي الأرض، وقد برزَت ثمراتُ التين كأنها بالوناتٌ صغيرة مُلوَّنة.

بعد نصف ساعةٍ من القفز المتقطِّع وصلَت السيارة إلى قرب الفيلَّا القديمة، وكان مشهدًا لا يُنسى … كانت الفيلَّا تقف وحيدةً في الخلاء كأنها تمثالٌ ضخم من عهد الفراعنة، وقد لوَّحتِ الشمس بشرتها التي كانت خضراءَ فأصبحت باهتةً بلون الرمال، وأمامها كان البحر بزُرقتِه الرقيقة يمتد إلى الأفق، وحولها تَنبسِط الأرض الرملية، وقد انتشَرتْ فيها غاباتٌ صغيرة من البوص … وعلى مَبعَدة تَظهَر شُجيرات التين مرةً أخرى.

صاحت «لوزة» (بانبهار): يا له من مشهد!

أخذ السائق الأسمر الصامت يُنزِل حقائب المغامرين و«نبيل»، وبعد أن انتهى من ذلك قال: متى أَعودُ إليكم يا أستاذ نبيل؟

ردَّ «نبيل»: أُريدكَ أن تمرَّ علينا كل ثلاثة أيام، تأتي لنا بالخضراوات والفاكهة والخبز؛ فنحن لم نُحدِّد بعدُ متى نعود!

أدار السائق سيارتَه وانطلَق، وتقدَّم الجميع يحملون حقائبهم إلى الفيلَّا … وصاح «نبيل»: عم سالم … عم سالم.

مضى صوته يتلاشى في الصمت بدون أن يسمعوا ردًّا … وقال «نبيل» بصوتٍ مشحون بالانفعال: شيءٌ عجيب! كنتُ أتوقَّع أن أراه بمجرَّد أن يسمع صوتَ مُحرِّك السيارة، هذه عادتُه في كل مرةٍ آتي فيها إلى هنا.

سار الأصدقاء حول المسافة بين مكان وقوف السيارة والفيلَّا وهي نحو خمسين مترًا … فقد كانت الأرض رمليةً ناعمة لا تسمح للسيارة بالسير، وإلا انغرسَت فيها.

وصل الجميع إلى الفيلَّا … كان الباب والنوافذ كلها مغلقة والصمت يسود المكان، أَحسَّ المغامرون الخمسة كما أَحَس «نبيل» بشيء من القلق … حتى «زنجر» أطلق نُباحًا خافتًا حزينًا.

أخذ «نبيل» يدقُّ الباب وينادي ولكن بدون جدوى … وخطر في أذهانهم جميعًا خاطرٌ واحد: وهو أن يكون «عم سالم» قد مات ولم يكتشف أحدٌ موته … إن رجلًا عجوزًا في

التسعين من عمره من المحتمل أن يموت في صمتٍ بدون أن يُحسَّ به أحدٌ ... خاصةً في هذا المكان النائي البعيد عن العمران. وقف «نبيل» حائرًا وهو يقول: شيءٌ غريب! أين ذهب الرجل العجوز؟

لم يردَّ أحدٌ من الأصدقاء، ثم عاد «نبيل» يُجيب عن السؤال: لعله ذهب يصطاد السمك، وقد يعود في أي لحظة.

وقف الجميع في ظل الفيلَّا يرقُبون المكان حولهم ... كان المشهد الطبيعي مذهلًا في تنوُّعه وجماله ... ولاحظَت «نوسة» أن تلال الرمال تمتد إلى مساحةٍ بعيدة بشكلٍ منظَّم كأنها حباتُ عِقدٍ من اللؤلؤ الأصفر.

قالت «نوسة»: يا لها من تلالٍ رائعة! ... إنها تُشبه عِقْد اللؤلؤ!

قال «نبيل»: إننا نُسمِّيها حبل الرمال ... فهي تُشبه حبلًا مجدولًا من الرمال.

مضى الوقت وتجاوزَت الساعة منتصف النهار، دون أن يظهر «عم سالم»، وقال «نبيل»: تعالَوا نبحث عنه عند الشاطئ، لعله يجلس خلف تلٍّ من الرمال يُخفيه عن العيون، اتركوا كل شيء؛ فلا أحد هنا يُخشى منه.

قال «تختخ»: أشُك في هذا ... إنني أُلاحِظ وجود آثارِ أقدامٍ كثيرة حول الفيلَّا.

ذُهل «نبيل» لحظاتٍ ثم قال: إنك تُفكِّر كرجال الشرطة.

ابتسم «عاطف» وهو يقول: إنك لا تعرفه ... لقد اشترك في حل عشرات الألغاز.

تختخ: لستُ وحدي، إن المجموعة كلها تُشارِكني في حل هذه الألغاز.

نبيل: مُدهِش، هذه أول مرةٍ أسمع عنكم، لقد عشتُ أكثر حياتي خارج مصر!

تختخ: لقد لاحظتُ ذلك أيضًا.

نبيل: كيف ذلك؟

تختخ: إن طريقة نُطقِك للغة العربية له نغمةٌ غير مصرية.

نبيل: لقَدِ اشتغل أبي في البلاد العربية أكثر من عشر سنين.

تختخ: هيا بنا نبحث عن «عم سالم».

ساروا جميعًا في اتجاه الشاطئ ... لم تكن المسافة تتعدَّى بضع عشراتٍ من الأمتار، فوصلوا إلى الشاطئ الذي كان يمثِّل ميناءً طبيعيًّا جميلًا، يمتَد إلى مسافة خمسين مترًا في البحر بواسطة لسانٍ من الرمال قد دعمَته قوائمُ خشبية وحديدية قديمة، ولكنها ما زالت متماسكة.

وقال «نبيل»: هذا هو مرسَى الميناء الصغير، لقد كان أكبر من هذا بكثير، ولكنَّ السنين أخذت منه الكثير!

كانت التلال تمضي على امتداد البحر العريض إلى الأفق، وزادت ضربات الموج على الشاطئ من رهبة المكان، فلم يكن هناك على مدى البصر مخلوقٌ سوى طيور النورس البيضاء.

لم يكن هناك أثَرٌ لـ «عم سالم»، وكان «زنجر» يقف متيقظًا مرفوع الأُذنَين، وأخذ يجري هنا وهناك خلف «الكابوريا» الصغيرة التي تعيش في جُحورٍ رطبة على الشاطئ، مرفوعة العينَين مثل مخلوقٍ خرافي، شاحبة اللون شبيهة بلون الضفادع ... وفجأةً عوى «زنجر» والتفَت الجميع إليه ... كانت إحدى «الكابوريات» التي يُطارِدها قد أنشبَت مخالبها الرهيبة في أنفه وهو يُحاول التخلُّص منها.

واضطُر الجميع إلى الضحك برغم توتُّر الموقف؛ فقد كان منظر «زنجر» وهو يجري ويعوي ويتمرَّغ على الرمال مثيرًا للضحك ... وأخيرًا تخلَّص «زنجر» من المخالب، وأخذ ينبَح في خُفوتٍ وألم.

انقَسَم المغامرون إلى قسمَين، واتفَقوا على أن يسيروا على الشاطئ كل مجموعةٍ في اتجاهٍ بحثًا عن «عم سالم» أو عن أي أثَرٍ له ... على أن يلتقوا جميعًا بعد نصف ساعة.

مضى كل فريقٍ في طريق ... كانت «لوزة» مع «محب» و«نبيل»، وأخذَت تنظر حولها في اهتمامٍ بالغ، لم يكن هناك سوى الرمال وبعض مخلَّفات البحر التي تصل إلى الشاطئ مع الأمواج، كانت تتمنى أن تجد أي أثَر ... لا بد أن يكون هناك أثَر ... هكذا كانت تُحدِّث نفسها، ومضَت الدقائق وقد ابتعَدوا عن الميناء الصغير ... وفجأة قالت «لوزة»: سمك!

وتوقَّف الجميع ونظروا إليها، كانت هناك مجموعةٌ من الأسماك الحية تتقافَز في حُفرةٍ صغيرة في الرمال بعيدةٍ عن الشاطئ بنحو ثلاثةِ أمتار.

والتفَت الجميع حول الحفرة وهم يفكِّرون ... ماذا يعني وجودُ السمك في هذا المكان؟

ثلاثُ مفاجآتٍ سيئة

كان في الحفرة ستُّ سمكاتٍ متوسطة الحجم ... وبرغم نقص المياه في الحفرة الصغيرة فقد كانت الأسماك حية، وقال «محب»: ماذا تستنتج من هذا يا «نبيل»؟

نبيل: هناك احتمالان لا ثالث لهما؛ إما أنَّ مياه البحر قد صَعِدَت إلى الشاطئ، فصنعت الحفرة، ثم انحسَرتْ مخلِّفةً وراءها هذه الأسماك. وإما أنَّ شخصًا قد اصطاد هذا السمك ثم حفَر الحفرة ووضَعه فيها.

محب: إذا كانت من صيد شخص، وبالصِّنَّارة، فسنجد آثار الصِّنَّارة في فم السمكة!

نبيل: صحيح! ولكن إذا كانت بالشِّباك فلن يبدُوَ عليها أيُّ أثَر.

وأمسَكوا بالأسماك وأخذوا يفحَصون أفواهها الضيقة ... كان واضحًا أنها صِيدَت بصنارة ... فقد كانت الآثار واضحةً على أفواهها.

لوزة: صادَها شخص ... أين هو؟

نبيل: أؤكِّد لكما أن مَن صادها هو «عم سالم»، وإذا لم تكن آثاره موجودةً هنا فربما لأن الأمواج أزالَتْها!

لوزة: وأين صِنَّارته؟

نبيل: من يدري ماذا حدث؟ ... وأنتم أيُّها المغامرون الخمسة مهمتكم معرفةُ ماذا جرى لـ «عم سالم»!

حمل الأصدقاء الثلاثة كمية السمك، ثم أسرعوا عائدين ليصلوا في موعدهم إلى مكان اللقاء مع المجموعة الأخرى ... لم يكن الثلاثة الآخرون قد عثَروا على شيء. وكان «زنجر» معهم يقفز حائرًا وهو يدرك أن المغامرين يبحثون عن شخصٍ غائب، أو شيءٍ مفقود.

أخذ المغامرون الخمسة و«نبيل» يتحدَّثون عن السمك الذي عثَروا عليه ... كان «نبيل» متأكدًا أن «عم سالم» هو الذي اصطاده ... فأين ذهب؟ وماذا سيفعلون بدونه؟ وكيف سيدخُلون المنزل؟

قال «تختخ»: من السهل فَتحُ إحدى النوافذ والدخول منها، لقد فعَلْنا ذلك من قبلُ في سبيل الفِرار من العصابات، أو البحث عن شيءٍ يخدم العدالة.

نبيل: إن ذلك سيكون شيئًا رائعًا! فقد نستطيع من فحص المنزل من الداخل أن نعرف ماذا حدث لـ «عم سالم».

أسرعوا بالعودة إلى المنزل القديم، ومن حقيبة «تختخ» خرجَت حقيبةٌ صغيرة بها مجموعة من الأدوات الدقيقة، ودار «تختخ» حول المنزل يفحَص النوافذ حتى استقَر رأيه على نافذةٍ معيَّنة، اقتَربَ منها ثم أخذ يُعالِجُها برفق وهدوء، لقد استطاع ببراعة أن يُحدِّد المكان الذي تُفتح منه النافذة، ثم أزال ثلاثَ قِطَع من خشب «الشيش» ومدَّ يده ففتح المِصْراع الخشبي، ولحسن الحظ لم يكُنِ الزجاج مغلقًا، وهكذا وبسرعة قفز إلى الداخل، وأسرع ففتح الباب ودعا الأصدقاء للدخول.

كان المنزل من الداخل قمةً في النظافة والنظام برغم قِدَمه، كان كل شيء في مكانه، وكل شيء لامعًا ونظيفًا ...

وقال «نبيل»: إن «عم سالم» كان بحَّارًا، وما يزال يعيش بعقلية البحَّار، إنه يستيقظ مبكرًا كأنه في السفينة، ويقوم بتنظيف وترتيب كل شيءٍ قبل أن يخرج للصيد.

وأشار «نبيل» إلى موقعِ غُرفة «عم سالم» في أول المنزل بجوار المدخل مباشرة، ودخل «تختخ» و«محب» إليها وفتَحا النافذة، كانت عشراتٌ من الأشياء الصغيرة موضوعةً في أماكنها ... وأكثرها يمثِّل تذكاراتٍ من الموانئ المختلفة؛ مرسيليا ... نابولي ... هامبورج ... بيريه ... وغيرها ... وكانت ملابس «عم سالم» البحرية ما زالت موجودةً ومعلَّقة داخل «دولابه» كأنها جديدة.

وقال «محب»: إنه رجلٌ مدهش.

تختخ: المهم أين ذهب؟

محب: إن علينا أن نرتاح ونغتسل، ثم نجتمع ونرى ما سنفعل.

وخرجا إلى بقية الأصدقاء ... وأخذ «نبيل» يُوزِّعُهم على الغرف وأماكن النوم.

طلبت «لوزة» أن تأخذ هي و«نوسة» غرفة تطل على البحر ... كانت تريد أن تقضي وقتها بجوار النافذة لتُشاهِد البحر وتتمتَّع برؤية أمواجه ... وتحقَّق لها ما تريد.

وأَسرعَ «نبيل» إلى مخزنٍ مجاور للفيلَّا حيثُ أدار ماكينة النور ... ثم أدار موتور رفع المياه حتى يملأ خزَّان المياه ويُدير الثلاجة.

بعد ساعةٍ تقريبًا كان الجميع يجلسون في صالة المنزل القديم، وكان السؤال الكبير الذي يواجههم جميعًا هو: أين ذهب «عم سالم»؟ وبعد مشاوراتٍ طويلة قال «نبيل»: إذا لم يعُد حتى المساء فلا بد من المشي حتى الطريق الرئيسي والبحث عن سيارة والإسراع إلى رجال الشرطة، إنني أخشى أن يكون قد أصابه مكروه!

ولكنَّ المغامرين كانوا يفكِّرون في شيءٍ آخر ... إن معهم «زنجر»، ومن الممكن أن يعتمدوا عليه في البحث عن «عم سالم».

وتحدَّث «تختخ»: علينا أن نَشوِي هذه الأسماك الرائعة ونتغدَّى ونرتاح ... ثم نبحث أمر «عم سالم» ... فإذا فَشِلنا فلا بد طبعًا من إخطار رجال الشرطة!

اقترح «نبيل» عليهم شيَّ السمك خارج المنزل، وقال: سنجمع كميةً من الحطب والأعشاب الجافة ونَشْوي السمك عليها ... إنه يُصبِح ألذَّ طعمًا من شيِّه داخل البيت.

وتفرَّقوا خارج المنزل وجمَعوا الحطب، وأشعلوا نارًا عالية ألقَوْا فيها بالأسماك، في حين كانت «نوسة» و«لوزة» تُعدَّان الأرز والسلطة وبقية متطلبات الغداء، وبعد ساعةٍ تناوَلوا غداءً شهيًّا، ولكنهم لاحظوا وهم يتغدَّون غياب «زنجر» وأخذوا يُنادون عليه دون جدوى، وانتهى الطعام دون أن يَظهَر لـ «زنجر» أثَر، وخرجوا جميعًا يبحثون عنه، ولكن «زنجر» اختفى، وكأنَّما ابتلَعه البحر أو الرمال.

أَحَس الجميع بالقلق لغياب «زنجر»، وقال «عاطف» مُعلِّقًا: إنه مكانٌ عجيب، لقد اختفى «عم سالم»، ثم اختفى «زنجر»، فمن الذي سيختفي بعد ذلك؟

كانت كلمات «عاطف» تحمل نذيرًا خفيًّا ... هل يختفي واحدٌ من المغامرين أو «نبيل» بعد ذلك؟ إنهم ما زالوا في وضح النهار، فماذا سيحدث في الليل؟

كان «تختخ» مستغرقًا في تفكيرٍ عميق، لقد حلموا جميعًا برحلةٍ ممتعة، ولكن البداية لا تُبشِّر بالخير، لقد وجدوا «عم سالم» مختفيًا، ولم تمضِ ساعاتٌ على وجودهم حتى اختفى «زنجر» أيضًا ... وقرَّر ألَّا يُضيِّع وقتًا؛ ففي حالات الاختفاء تُصبح الدقائق ثمينة، وهكذا قال: سنَخرُج جميعًا للبحث عن «زنجر»، إن الريح ساكنة، وسنجد آثاره على الرمال، وسننتشر جميعًا في شكل مروحةٍ حول الفيلَّا ونلتقي بعد ساعة.

وخرجوا جميعًا، وبعد لحظاتٍ كانوا قد تفرَّقوا كلٌّ في اتجاه، وارتفعَت صيحاتهم في الفضاء الساكن. زنجر ... زنجر!

استمرَّت محاولة البحث، ولكن لم يكن هناك أثَرٌ للكلب الأسود الذكي، لقد كان حبل الرمال الذي يمتد بمحاذاة الشاطئ يُخفي البحر عن الصحراء ... ويُخفي الصحراء عن البحر ... على سفوحه الممتدة تتكاثَف غاباتُ البوص وأشجار التين العجوز، وبعد سفوحه المُطِلَّة على الصحراء ترتفع مئاتٌ من الصخور الضخمة، حيث يمكن اختفاء أي شخصٍ دون أن يُعثر له على أثَر.

مضت الساعة وهم جميعًا يبحثون دون أن يظهر «زنجر»، وبدأَت رحلة العودة إلى الفيلَّا، وكانت هناك مفاجأةٌ ثالثة في ذلك اليوم المُرهِق ... لقد حضَر جميع أفراد الفريق ولكن لم تظهر «لوزة»!

في البداية ظنَّ الجميع أنها تخلَّفتْ لأنها صغيرة، وربما لم تستطع العودة سريعًا ... ربما متعبة ... ربما وجدَت شيئًا ستعود به ... ولكن ربع ساعةٍ مضت دون أن تظهر «لوزة» ... نصف ساعةٍ مضت دون أن تظهر «لوزة» ... ثم مضت ساعة دون أن تظهر «لوزة».

بدا واضحًا أن «لوزة» قد اختفَت ... إنها لحقت بـ «عم سالم» ثم «زنجر»، إن قوةً خفيةً لا يعرفها أحدٌ منهم تصطاد بسرعة وإتقان، ولا يمكن مقاومتها.

ساد الصمت وهم يقفون في ظل الفيلَّا، وكان «عاطف» يمدُّ بصره إلى بعيدٍ ... كان قلبه يخفق بشدة وهو يرجو أن يرى أخته «لوزة» قادمةً من خلف أحد التلال، ولكن مضت ساعتان دون أن تَظهَر «لوزة».

وتأكَّد الجميع أنهم في موقفٍ خطير، وأن القوة الخفيَّة التي تعمل ضدَّهم دون أن يَدْروا قادرةٌ على اصطيادهم واحدًا وراء الآخر.

بدايةٌ سيئة

بدأ الموقف خطيرًا ومُتوترًا ... لقد كانت مشكلتُهم الأولى هي اختفاء «عم سالم»، ولكن المشكلة أصبحَت ثلاث مشاكل؛ «سالم» و«زنجر» و«لوزة» ...

والمكان مُوحِش وبعيد عن العمران، وليس هناك من يمكن سؤالُه وطلبُ المساعدة منه، والوصول إلى الشرطة يستدعي وقتًا طويلًا.

جلسوا جميعًا في صالة الفيلَّا وقد ران عليهم صمتٌ كئيب، كانوا جميعًا يفكرون في حلٍّ، ولكن الحلَّ الوحيد كان انتشارهم مرةً أخرى للبحث، وذلك يُعرِّضهم لخطر اختفاء واحدٍ منهم؛ فهناك عدوٌّ مجهول متربص بهم يمكن أن يخطفهم واحدًا واحدًا. وهكذا تحدَّث «تختخ» قائلًا: لن يخرج أحدٌ وحده بعد ذلك ... لا بد من السير اثنَين اثنَين، حتى إذا وقع مكروهٌ لواحدٍ استطعنا أن نعرف مِنَ الثاني ما حدث.

محب: وما هي خطوتُنا القادمة؟

تختخ: هذا ما أفكِّر فيه كما تعلمون، وليس هناك حلٌّ الآن إلا متابعة آثار الأقدام على الرمال، صحيحٌ أنها مختلطة، ولكن كانت ربما آثار أقدام «زنجر» هي الوحيدة المختلفة، والتي يمكن أن تدُلَّنا ... وإذا عثَرنا على «زنجر» فربما نعثُر على الباقين!

نوسة: هذا معقولٌ جدًّا ... هيَّا بنا.

تختخ: سنذهب أنا و«محب» و«نبيل» ... وستبقي أنت و«عاطف»، إن «نبيل» يعرف المنطقة أفضَلَ منا؛ لهذا فمن الأفضل أن يأتي معنا ليدُلَّنا.

وخرج الثلاثة معًا، وبدءوا البحث عن آثار مخالب «زنجر» في الرمال، ولم يكن في ذلك مشكلة؛ فلم تكن هناك آثار كلبٍ آخر في المنطقة، واستطاعوا برغم كثرة ما تركه «زنجر» من آثار أن يعثروا على أثَرٍ وحيد له يتجه ناحية حبل الرمال.

قال «نبيل» وهم يتتبَّعون الأثَر: هناك بعض المعلومات الهامة عن هذه المنطقة كنتُ أُريد أن يَروِيَها لكم «عم سالم»، ولكن ما دام متغيبًا فيجب أن أقولها لكم. إن هذه السلسلة من الرمال — التي نُسمِّيها حبل الرمال — تحتوي في أجزاءٍ منها على آبارٍ مدفونة من الصعب تمييزها، وهذه هي الآبار الرومانية التي تُوجَد هنا منذ آلاف السنين.

وسكت «نبيل» مُتردِّدًا ثم عاد يقول: وأخشى ما أخشاه أن تكون «لوزة» قد سقطَت في إحدى هذه الآبار.

توقَّف «محب» و«تختخ» عند سماع هذه الجملة … إن المسألة أخطر كثيرًا مما يتصوَّرون.

وقال «محب»: وهل يمكن أن يكون قد حدث هذا لـ «عم سالم»؟

نبيل: لا … من المستبعد … فـ «عم سالم» خبير بدروب هذه المنطقة وآبارها وآثارها … بل إن من أسباب بقائه في هذه المنطقة ما يُردِّده باستمرار أن هناك طرقًا تحت الرمال محفورة منذ آلاف السنين، وهو يتصوَّر أن هناك حياةً خلف حبل الرمال لا يعرفها أحد، والحقيقة أن بعض الشواهد تؤكد ما يقول! إن حبل الرمال ينتهي في البحر، وهناك بعض الأماكن الساحلية لا يمكن أن يصل إليها الإنسان إلَّا عن البر!

تختخ: مدهش … مناطقُ ساحلية ولا يمكن الوصول إليها عن طريق البحر!

نبيل: نعم … ويقول «عم سالم» إن سفينة «النجمة الخضراء» التي غرقَت منذ ٤٠ عامًا غرقَت مقابل منطقة من هذه المناطق … وهو يشُكُّ في أن كنوز هذه السفينة قد نُقلَت إلى البحر بطريقةٍ ما، وأنها موجودة في حبل الرمال.

حاول المغامران أن يتناسيا الواقع المر، وهو أن «لوزة» قد تكون الآن في إحدى الآبار القديمة، وأنهما ربما لا يريانها بعد ذلك. نعم حاولا أن يتناسيا ذلك، فلا يمكن أن تضيع المغامِرة الصغيرة بهذه البساطة، وهي التي شاركَت في عشرات المغامرات.

بدا السير في الرمال والشمس مُجهِدًا … وأَحَس الثلاثة أنهم يضربون على غير هُدًى، خاصة أن آثار «زنجر» اختفَت تمامًا عند مساحات الأعشاب الواسعة التي تُشكِّل الجانب الشرقي لحبل الرمال …

توقَّف «نبيل» عن السير قائلًا: لا فائدة مما نفعل، لا بد أن نذهب فورًا إلى الشرطة، إن عندنا دراجةً قديمة كنتُ قد أحضرتُها منذ عامَين … وبها بعض الإصلاحات، ومن الممكن أن تساعدنا على الوصول إلى نقطة شرطة العجمي، وهي موجودة عند الكيلو ٢٠.

تختخ: إن علينا أن نقطع نحو ٥٥ كيلومترًا بالدراجة!

نبيل: هذا أفضلُ من الانتظار ... إنكم ضيوفي، ومن واجبي أن أُحافِظ عليكم.

تختخ: دعكَ من هذا، إننا أصدقاء، وما حدث ليس لك دخل فيه، وعلى كلِّ حالٍ ليس أمامنا إلَّا هذا الحل، فهيا بنا نعود لإصلاح الدراجة.

عاد الثلاثة بعد سيرٍ طويل مُجهِد، ووجَدوا «نوسة» في حالةٍ يُرثى لها من الخوف والجزع على «لوزة» و«زنجر»، وذهب الجميع إلى المخزن الملحَق بالفيلَّا، وأخرجوا الدرَّاجة القديمة، ووجدوا بعض الأدوات التي يمكن استخدامُها في الإصلاح، وطلب «تختخ» من «نوسة» و«عاطف» أن يُجهِّزا الغَداء؛ فقد مالت الشمس للمغيب دون أن يتناولوا أي طعام.

كان الموقف مقلقًا والاحتمالات كثيرة، ولكن «تختخ» كان يُحسُّ بشعورٍ غريب ... إن ذهنه المتوقِّد كان قادرًا على الثبات أمام هذا الاضطراب، كان يفكِّر أنه ليس من المعقول أن تقع «لوزة» ببساطة في البئر، أو في يد عصابةٍ خفيَّة تُحاربهم، ولكن لماذا تُحاربهم؟ إنهم لم يفعلوا شيئًا مطلقًا ... إنهم حتى لم يَرَوا مخلوقًا واحدًا منذ حضَروا إلى حبل الرمال.

وبينما أخذَت «نوسة» و«عاطف» في إعداد طعام الغَداء، أخذ الأصدقاء الثلاثة يعملون في إصلاح الدراجة بهمة ونشاط، وكانت المشكلة الرئيسية هي الصدأ؛ فالجو رطبٌ قُرب البحر يجعل المعادن تصدأ بسرعة وبكثافة، ولهذا فكُّوا الدراجة قطعةً قطعة، ووضَعوها جميعًا في كمية من الجاز وتركوها حتى يُمحى الصدأ.

وقالت «نوسة» بصوتٍ خافت: هل نأكل بدون «لوزة»؟

رد «تختخ» مطمئنًا: لا تخافي يا «نوسة»، قلبي يُحدثني أن «لوزة» لم يُصبْها مكروهٌ، ولولا ذلك لما جلستُ لحظةً واحدة!

وضَعوا الغَداء على المائدة ... وجلس الخمسة حولها يتناولون الطعام في صمت ... وحاول «تختخ» أن يُخفِّف أثَر غياب «لوزة» فقال: لعلها وجدَت لغزًا تُحاول حلَّه وحدها!

ولكنَّ أحدًا من الجالسين لم يضحك ... لقد ابتسموا فقط مجاملةً له؛ فليس من صناعة «تختخ» قول النكات.

وانتهَوا من الطعام والشمسُ تُوشِك على المغيب، وخرج «تختخ» وحده يشهد غروب الشمس وهو يفكِّر فيما سيفعل، إنه الأكبر والأرشد وعليه أن يأخذ قرارًا، وهو يحسُّ أن ركوب الدراجة إلى نقطة الشرطة مسافة ٥٥ كيلو مترًا ليس مسألةً سهلة، والحل أن يصلوا أولًا إلى الطريق المرصوف، وينتظروا سيارةً قادمة من مرسى مطروح أو السلوم تحملهم إلى نقطة الشرطة.

غَربَت الشمس وهبط ظلامٌ هادئ موحش على المكان الخالي، ولمعَت أضواء الكهرباء على واجهة الفيلَّا، وانعكسَت من بعيد على مياه البحر.

كان هناك قمرٌ وليد تغطِّيه السُّحب، والجوُّ أمْيَل إلى البرودة، وظل «تختخ» واقفًا مكانه حتى خرج «محب» يحمل له كوبًا من الشاي، وتناوَل «تختخ» الكوب شاكرًا، ورشف رشفةً عميقة وتنهَّد … إن هبوط الظلام مشكلةٌ أخرى، ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان؛ ففي هذه اللحظة — و«محب» يقول لـ «تختخ»: إننا في مأزقٍ حرج، ومهما حاولتَ أن تطمئننا فإنني أُحس بالقلق — في هذه اللحظة حدث الشيء الوحيد الذي يُمكِن أن يبعَث الأمل والتفاؤل في قلوب المغامرين … لقد ظهر شبحٌ أسود يمشي على حبل الرمال، كان القمر يُخفيه ويُبديه كأنه شبحٌ أسطوري قادم من عالمٍ بعيد.

كان «زنجر»، وعندما اقترب منهما صاحا معًا: زنجر … زنجر. وتقدَّم الكلب مُتعثِّرًا إليهما … كان واضحًا أنه منهوك القوى، وأنه لا يكاد يستطيع أن يقف … ولكن المهم أنه كان يحمل في فمه شيئًا مهمًّا جدًّا للكشف عن غموض اختفاء «لوزة».

حدث شيءٌ مثير!

كان في فم «زنجر» فردةُ حذاء «لوزة» ... وصاح «تختخ» كأنه شاهَد «لوزة» نفسها: زنجر ... يا لكَ من كلبٍ رائع! أخذ «زنجر» يتمسَّح ب «تختخ» الذي انحنى وربتَ على ظهره وتناوَل الحذاء من فمه، وقال «محب»: إنه مُرهَقٌ جدًّا ... ربما جريح أو مريض.

تختخ: تعال ندخل.

دخلا إلى صالة الفيلَّا ... وقال «محب»: لقد عاد «زنجر»!

التفَت الجميع إليه، وكان «تختخ» يتأمل فردة الحذاء، إنها فردة حذاء «لوزة» فعلًا، وليس هذا فقط ... إنها رسالة ... فقد لاحظ «تختخ» على الفور أن «لوزة» قد ربطَت حزام ثوبها في الحذاء ... إنها تقول لهم إنها على قيد الحياة ... وصاح «تختخ» (مبتهجًا): إن «لوزة» حية ... ألم أقل لكم إن المغامِرة الصغيرة ستعود ... ولكنَّ الحذاء مُبلَّل وكذلك الحِزام!

كان «عاطف» صامتًا ... إن «لوزة» بالنسبة له ليست شقيقةً فقط، إنها تَوءَمُ روحه، وأعزُّ مخلوقةٍ لديه ... وبدون رَويَّة قفَز إلى «تختخ» وتناول الحذاء ... نعم إنه حذاء «لوزة». وانحنى على «زنجر» وهو يقول: أين هي يا «زنجر»؟ أين «لوزة»؟

هزَّ الكلب الذكي ذيله كأنه يقول له: إنني أعرف!

وقال «محب»: إنه مُرهَق وجائع ... فلنحضرْ له بعض الطعام!

ووضَعوا له كمية من الأكل والماء، وانهمَك «زنجر» في الشرب أولًا، ثم تناوَل طعامه، وجلس لحظاتٍ كأنه يستريح، وكان المغامرون قد استعدُّوا للانطلاق معه، جهزوا بطارياتهم الصغيرة، وقال «نبيل»: لنأخذ معنا حبلًا، إنني أتوقَّع أن تكون قد سقطَت في إحدى الآبار ... خاصة أن الحِذاء والحِزام مبلَّلان.

وقال «تختخ»: مُحدِّثًا «زنجر»: هيَّا بنا!

وانطلق «زنجر» وهم خلفه ... واتجه فورًا إلى «حبل الرمال» وأخذ يسير وأنفه إلى الأرض، وهو يُطلِق نُباحًا طويلًا بين فترة وأخرى. كأنه يُرسل إلى «لوزة»، رسالةً بأنه قادم.

استمَروا في السير مسافةً طويلة بحذاء الشاطئ، ثم انحرف «زنجر» متوغلًا في الصحراء ودار دورةً واسعة حول كثبان الرمال، ثم تمهَّل لحظات وأخذ يتشمَّم الأرض بشدة، ثم واصل سيره، وصَعِد تلًّا رمليًّا عاليًا وهبط سريعًا، ثم توقَّف، وأرسل أنفه إلى الهواء وأطلق نُباحًا طويلًا، ثم قفز إلى الأمام وزحف بضعة أمتار، ثم وقف وواجه الأصدقاء وأخذ ينبَح في حزن. وفهم «تختخ» الرسالة ... إن «زنجر» يُحذِّرهم، عليهم أن يتقدَّموا ببطء ... وهذا ما فعلوه ... أطلقوا أشعة بطارياتهم وشاهدوا على الفور ما يعنيه «زنجر» ... كان هناك انهيارٌ رمليٌّ قد أحدث فجوةً كبيرة في الأرض، وبجوارها تمامًا كانت فتحةُ بئرٍ قديمة من الحجر قد غطَّته الرمال ...

وصاح «عاطف»: لوزة!

وسمعوا صوتًا يُصدر من أعماق البئر ضعيفًا واهنًا، ولكنهم عرفوه جميعًا، كان صوت «لوزة». وداروا حول الانهيار الرمليِّ، وانحنَوا على البئر وأطلَقوا أشعة البطاريات، وكانت مفاجأة ... لقد كانت البئر عميقة جدًّا، أكثر مما تصوَّروا بكثير، وكانت المياه تغمر قاعها حتى وصلَت إلى أكتاف «لوزة» التي كانت ترفع ذراعَيها إلى أعلى، وكاد «محب» و«عاطف» أن يُقْدِما على عملٍ جنوني ... كادا يلقيان بنفسَيهما في البئر، وكان «تختخ» يشعُر بنفس الشعور؛ فقد كانت المغامِرة الصغيرة في حالةٍ يُرثى لها، ولكن «تختخ» تمالَكَ نفسه، في حين سالت دموع «نوسة»، وقال «تختخ» (بصوتٍ واضح): لا أُريد تصرفاتٍ حمقاءَ، إن حياة «لوزة» في خطر، ويجب أن نتصرف بطريقةٍ عاقلة.

وانحنى أكثر داخل البئر وصاح: لوزة ... ودوَّى صوته في العمق البعيد ... وعاد الصدَى ... لوزة ... لوزة ...

ثم مضى يقول: لا تخافي ... نحن هنا ... سوف نُدلي إليك بحبل ... اربطيه في وسطك، واقتربي من جدار البئر ... وسنشُدُّكِ.

تكفَّل «نبيل» بإحضار الحبل بسرعة، ثم قام «تختخ» بتنفيذ فكرته، قذف «تختخ» بطرفه إلى «لوزة» وأضاءوا بطارياتهم جميعًا لترى الحبل، وقد استطاعَت على الفور أن تُمسِك به، ثم تلُفَّه حول وسطها كما طلب «تختخ» وتربطه ... واقتربَتْ من جدار البئر وهي تتحرك وسط المياه بصعوبة ... وبدأ الأصدقاء جميعًا في سحبها، وهي تضع قدمَيها على جدار البئر، وتُمْسِك بالحبل بين يدَيها، وصاح «تختخ»: اجذبوا على مهل، لا داعي

للإسراع حتى لا يؤلمها الحبل، وأخذوا يجذبون بهدوء، وهم يتحدَّثون إليها مشجعين. وكانت «نوسة» تمسك ببطاريةٍ تُسلِّط ضوءها على صديقتها العزيزة.

أخذَت «لوزة» ترتفع بوصة ... بوصة ... وأخذ العرق يسيل غزيرًا من أجسام الأصدقاء وهم يرفعونها ... ولكنهم ظلُّوا يعملون في انتظام وهدوء حتى برزَ رأس «لوزة» فوق البئر، وأمسكَت حافتَها بيدَيها، ومَدَّ الجميع أَيديَهم وحملوها حملًا.

أضاء القمَر الصغير المشهد حول البئر ... وبدت «لوزة» وكأنها قادمة من عالمٍ آخر ... كانت ملابسها مُبلَّلة ملتصقة بجسمها الصغير، وشعرها مُشعثًا، ويداها مُتسلِّختَين، ولم تنطق بكلمةٍ واحدة، بل احتضنَت «نوسة» ثم «عاطف».

وقال «نبيل»: هيا نعود سريعًا، أخشى عليها من الهواء. وأسرعوا عائدين، وفي أعقابهم «زنجر» ودخلوا المنزل، وعلى الضوء شاهدوا «لوزة» ولم يُصدِّقوا أعينهم ... لقد كانت حقًّا في حالةٍ يُرثى لها، وأسرعَت «نوسة» معها إلى الحمَّام حيث اغتسلَت وغيَّرتْ ثيابها، ثم وضعوا لها الطعام ... وجلسوا جميعًا حولها وبدأَت تحكي ما حدث لها.

قالت «لوزة»: عندما خرجنا للبحث عن «زنجر»، وبعد أن سرنا غربًا خُيِّل إليَّ أنني أسمع صوت «زنجر» في مكانٍ ما، لم أكن متأكدة؛ لأن الريح كانت معاكسة ومن الصعب تتبُّع الصوت؛ ولهذا لم أقل لكم ... وفجأةً دخلتُ في حبل الرمال ... ووجدتُ نفسي وحيدة وبعيدة عنكم ... وكنتُ في نفس الوقت أتتبَّع صوت «زنجر» فظلَلتُ أسير حتى اقتربتُ من مصدر الصوت ... كان «زنجر» يقف قريبًا من البئر وهو ينبَح نُباحًا قويًّا، لا أدري ماذا رأى، ولكنني رأيتُ آثار أقدامٍ حديثة حول البئر، ربما كانت لرجلَين أو ثلاثة، فاقتربتُ من البئر أكثر ... ووقفتُ على تلٍّ صغير من الرمال، وفجأةٍ حدث انهيار وسقطَت الرمال تحت قدمَي، وقبل أن أتمالك نفسي فقدتُ توازُني، وسقطتُ في البئر!

كان الجميع يستمعون وقد استولَت عليهم الدهشة والذعر معًا ... وعادت «لوزة» تقول بصوتٍ متقطع: لحسن الحظ أن البئر كانت غير ممتلئة بالماء ... وأنني لم أسقُط على رأسي، فقد درتُ في الهواء وسقطتُ على ظهري، كانت السقطة مؤلمة، وغُصتُ في الماء حتى قاع البئر، وعندما ارتطمتُ بالقاع أحسستُ بالإغماء، ولكنني قاومتُ، واستطعتُ أن أطفو.

وعادت «لوزة» إلى الصمت وهي تمضَغ طعامها على مهلٍ، ثم عادت تقول: عندما طفوتُ سمعتُ «زنجر» وهو ينبَح، وحاولتُ أن أُقنِعه أن يعود إليكم، ولكنه ظل ينبَح وينبَح وهو يجري حول البئر كالمجنون، كان يُريد أن يكون قريبًا مني، لم يشأ أن يغادرني مطلقًا!

وقال «عاطف» وهو يربتُ على ظهر «زنجر»: يا له من كلبٍ وفيٍّ!

وأكملَت «لوزة» حديثها: ظلَلتُ أطفو على الماء فترةً طويلة، ولكنني تعبتُ جدًّا، فأخذتُ أتحسس جوانب البئر فلم أجد أحجارًا بارزة أصعد عليها إلى حافة البئر ... ولكن ما وجدتُه كان شيئًا آخر ... وتزايد انتباه الأصدقاء إلى الحديث، ومضت «لوزة» تقول: وجدت بابًا مُحكمًا بإغلاق في جانب البئر يكاد يكون في مستوى الماء، وفي المقابل — وتحت مستوى الماء بكثير — أحسستُ بقدمي ترتطم ببابٍ آخرَ، وغُصتُ وتحسَّستُ الباب الثاني، كان عند مستوى القاع تقريبًا!

تختخ: هل الماء في البئر حلو أم مالح؟

لوزة: إنه ماءٌ مالح ... ماء البحر!

تختخ: ماءٌ طازج ... أم ماءٌ راكد ومتعفِّن؟

لوزة: ماءٌ طازج.

تختخ: شيءٌ غريب!

لوزة: والأغرب من هذا أن الباب العلوي كبيرٌ يتسع لمرور شخصٍ مُنحَنٍ، في حين أن الباب الثاني صغير!

تختخ: هذا يعني أن هذا البئر متصلة بالبحر، ويتم ملؤها من الباب العلوي، ويتم تفريغها من الباب السفلي!

نوسة: لماذا؟

تختخ: لا نعرف ... ولكنْ ثمة شيءٌ مريب، خاصة أن «زنجر» كان قد وصل إلى البئر قبل «لوزة» ونبح هناك ... كذلك قالت «لوزة» إنها وجدَت آثار أقدامٍ حول البئر لرجلَين أو ثلاثة!

تحدَّث «نبيل» فقال: لقد اكتَشفتُم شيئًا هامًّا ... شيئًا حدَّثَني عنه «عم سالم» كثيرًا ... لقد كان الرجل العجوز يشُكُّ في وجود طريقٍ بري يربط بين حبل الرمال والشاطئ المهجور، حيث لا يستطيع أحدٌ الوصول عن طريق البحر ... إن هذا الاكتشاف مثيرٌ جدًّا وهامٌّ ... ولو كان «عم سالم» موجودًا لكان أكثر الناس سعادة؛ فقد ظلَّ سنواتٍ طويلةً وهو يحلُم بالعثور على هذا الطريق، إنه يعني أشياءَ كثيرةً بالنسبة له.

هناك شخصٌ مجهول

بعد يومٍ مُرهِق، استسلم الأصدقاء جميعًا للنوم ... ولكن «نبيل» قضى اللَّيلَ مُؤرَّقًا؛ فقد كانت مشكلة اختفاء «عم سالم» تؤرِّقه ... هذا الرجل الشجاع العجوز آخر الأحياء من بحارة جَدِّه، وحارس الميناء القديم والفيلَّا، كيف اختفى؟! وما هي علاقة الأسماك الحية على الشاطئ باختفائه؟ أيكون قد انساق وراء سمكةٍ كبيرة في الماء فغرق؟ ولكن كيف يغرق بحَّارٌ قديم؟

هكذا أخذَ يفكِّر، وينام ويصحو، حتى نظر إلى ساعته، فوجدها قد أشرفَت على الثالثة بعد منتصف الليل، فلم يبقَ على الفجر إلا نصف ساعة، فقام بهدوء وذهب إلى المطبخ، ليُعدَّ لنفسه كوبًا من الشاي ... وبينما كان الماء يغلي على النار وهو واقف ينظر إليه ساهمًا إذ أَحسَّ بحركةٍ خلفه، وعندما نظر ناحيةَ الباب شاهَد «تختخ» متجهًا هو الآخر إلى المطبخ.

نبيل: صباح الخير.

تختخ: صباح الخير.

نبيل: ماذا أيقظَك؟

تختخ: إنني أفكِّر في مسألة اختفاء «عم سالم» ... إنها لا يمكن أن تمرَّ بهذه البساطة، يجب أن نبذلَ جهودًا أكبر للعثور عليه!

نبيل: هذا ما فكَّرتُ فيه طول الليل، ولكن من أين نبدأ؟

تختخ: أتصوَّر أن هذه البئر التي سقطَت فيها «لوزة» تُخفي سرًّا هامًّا ... إن عملية ملئها بالماء ثم تفريغها بنظامٍ معين يؤكدان أن ثمة شخصًا أو أشخاصًا يقومون بعملٍ مجهول لا يريدون أن يعرفه أحدٌ ... ولا بد أن «عم سالم» عرف شيئًا عنهم ... فمن غير المعقول أن يكون موجودًا هنا طول الوقت ولا يرى أو يُحس أن شيئًا غير عادي يحدُث في المكان؛ لهذا فإنني أعتقد أن اختفاء «عم سالم» له علاقة بهؤلاء المجهولين!

نبيل: لقد حكَيتُ لكم قصة السفينة «النجمة الخضراء» ... آخر سُفن جدي، والتي كانت تحمل ثروته ... هذه السفينة التي غرقَت عند نهاية حبل الرمال ... إن «عم سالم» ما زال يعتقد أن السفينة لم تغرق بالمصادفة، أو بالقضاء والقدَر ... ولكنها غرقَت بفعلِ فاعلٍ ... وقد ظل مُصِرًّا برغم مرور الأعوام على حل لغز غرق السفينة.

تختخ: إن الخيوط كلها تتجمَّع لتشير إلى هذه القصة الحقيقية ... ففي مثل هذا المكان لا يمكن أن يعيش أحدٌ إلا إذا كان يقوم بعمل لا يريد أن يعرفه أحد، عملٍ سري، عملٍ ضد القانون، ربما تهريب مخدراتٍ مثلًا!

نبيل: أو الاستيلاء على شيء ليس من حقه!

تختخ: هذا ممكن، وهذا ممكن!

كانا يرتشفان الشاي مع بعض قطع البسكويت ويتحدَّثان، وقال «تختخ»: إنني أتصوَّر أن نشاط أي شخصٍ خارج على القانون لا بد أن يتم تحت جُنح الظلام ... لهذا فإنني أفكِّر أن نذهب الآن ونرقُب البئر، لعلنا نعثُر هناك على شيءٍ غير عادي. وافق «نبيل» بحماس، وقال «تختخ»: سنكتب ورقة لبقية الأصدقاء حتى لا يظنُّوا أننا اختفَينا أيضًا.

كتب «تختخ» ورقةً بأنهما ذاهبان إلى البئر، وعلَّقها في مكانٍ بارز في الصالة، ثم ارتديا ثيابهما وخرجا. كان «زنجر» ينام أمام الفيلا، ولم يكد يُحس بفتح الباب حتى وقف، وحيَّاه «تختخ» ثم ربت رأسَه ... وبدون دعوةٍ منهما تَبِعَهما «زنجر»، ثم تجاوَزَهما وسار أمامهما. أدرك الكلب الذكي حبل الرمل وهما خلفه ... كانت خيوط الفجر الأول تُطلُّ من السماء وتُحيلُ التلال والرمال والأعشاب إلى منظرٍ يموج بالأضواء والظلال.

ظلا يسيران خلف «زنجر» الذي كان يعرف طريقه جيدًا بين تلال الرمال المتشابهة كأنها حبَّات المسبحة، حتى وصلا إلى المنحنى الأخير لحبل الرمال، وصَعِد «زنجر» التل، فناداه «تختخ» بصوتٍ خافت؛ فقد أدرك أنهم قد وصلوا إلى المكان.

توقَّف «زنجر» مكانه، وأحنى «تختخ» و«نبيل» رأسَيهما، وأخذا يزحفان بهدوء على الرمال حتى وصلا إلى قمة التلِّ ونظرا إلى حيث البئر ... وكانت مفاجأةً كاملة ... كان ثَمَّةَ رجلٌ قد خرج حالًا من حافة البئر ... ووقف وهو يرتدي ملابس الغوص ينظُر حوله في حذَر، ثم خلع غطاء الرأس، وأخذ ينثُر المياه، ومدَّ يده فشد حَبلًا كان متدليًا في البئر، خرج الحبل وفي نهايته صندوقٌ حديدي صغير. حلَّه الرجل ثم عاد يتلفَّت حوله، وعندما اطمأن إلى عدم وجود أحدٍ دفَن الصندوق في الرمال، ثم سار متجهًا إلى قلب الصحراء.

أشار «تختخ» لـ «نبيل» أنهما سيتبعانه، وكان «زنجر» مستعدًّا فسار هو الآخر، وظل الرجل يسير حتى أشرف على المستنقعات الكبيرة المحيطة بحبل الرمال ... حيث ترتفع

غابات البوص والأعشاب، وتغطِّي المياه الراكدة مساحاتٍ كبيرة من الأرض ... تلفَّت الرجل حولَه لحظات، ثم دخل إلى أحد تجمُّعات البوص، وأخذ يُزيح أعواد البوص الضخمة بيدَيه، ثم اختفى خلفها.

قال «نبيل» هامسًا: كما قلتُ لكم من قبلُ ... هذه المنطقة لا يمكن الدخول إليها عن طريق الصحراء، لا بد أن يكون ذلك عن طريق البحر، ويبدو أن هذه البئر هي الطريق من البحر إلى المكان المجهول.

تختخ: لقد استنتجتُ ذلك ... إنهم يفتحون الباب العُلوي الكبير حيث تتدفَّق المياه من البحر ... من فتحة على الشاطئ، ويدخل الشخص من خلال الفتحة ويظل مندفعًا مع المياه خلال سردابٍ يمر تحت حبل الرمال حتى يصل إلى البئر، ثم يصعد منها إلى سطح الأرض ويمشي كما رأينا ... وفي الإمكان تجفيفُ البئر بإغلاق الباب العُلوي الكبير، ثم فَتْح الباب السفلي الصغير، فتتسرَّب المياه إلى المستنقعات.

نبيل: هذا استنتاجٌ مدهش، ولكن هل تظنُّ أن أشخاصًا هم الذين حفَروا السرداب والبئر؟

تختخ: لا ... إنها من مخلَّفات العصر الروماني، وعصور القراصنة ... إن ما فعلوه هو اكتشاف هذه الطريقة المثلى والقصيرة للوصول من البحر إلى الواحة، وهم بهذا يتجنَّبون عيون الفضوليِّين!

نبيل: وماذا تظُن في هذا الصندوق؟

تختخ: لو كان به شيءٌ هام لَمَا تركه تحت الرمال ... في الأغلب به بعض أدواتٍ ميكانيكية!

نبيل: وما هي خطَّتكَ الآن؟

تختخ: سنتقدَّم لنرى الفتحة التي دخل منها الرجل إلى المستنقعات ... لعلنا بعد أن نراها نستطيع أن نكتشف المكان الذي يُقيم به الأشخاص المجهولون!

تقدَّما بحذَر ومعهما «زنجر» حتى وصلا إلى غابة البوص ... وأزاح «تختخ» أعواد البوص الكثيفة كما فعل الرجل، وكم كانت دهشتُه حين وجد أنها تُخفي بابًا من البوص الجافِّ قد أُخفي بمهارةٍ وسط أعواد البوص الخضراء.

تقدَّم «تختخ» وانحنى على الباب، وأخذ ينظُر في الفتحات التي به ... ومرةً أخرى أصابَتْه الدهشة ... كان هناك طريقٌ طويل ممهَّد في قلب غابة البوص قد أحاطت به الأعشاب المتكاثفة ... وكان الطريق ضيقًا وطويلًا ومتعرجًا، ولم يكن في إمكان «تختخ» أن

يرى نهايته ... ولكنه سمع دويًّا منتظمًا يصدُر من مكانٍ بعيد ... ربما في نهاية الطريق ... صوت يشبه ماكينة تدور.

همس «تختخ»: لقد وصلنا إلى معلوماتٍ هامة ... بالتأكيد هناك عملٌ سري يتم في هذا المكان.

نبيل: وماذا تقترح؟

تختخ: إن ما يهمني الآن هو العثور على «عم سالم» لنسمع قصَّته ونعرف ماذا جرى له ... إن حديثه والمعلومات التي لدينا ستضع أمامنا صورةً شاملة عن الموضوع كله ... وعلى ضوء هذا الشكل المتكامل نستطيع التصرُّف.

فجأةً قفز «زنجر» من الخلف ... واجتاز الباب دون أن ينتظر تعليماتٍ من «تختخ» الذي وقف مندهشًا لتصرُّف «زنجر» ... وانزوى جانبًا ينظر إلى «نبيل» الذي لم ينطق بكلمةٍ واحدة.

غاب «زنجر» نحو خمسِ دقائقَ ثم ظهر مرةً أخرى وقد وقف شَعره، وبدا عليه الاهتياج الشديد ... وأخذ يتمسَّح في «تختخ» ويحاول أن يتحدَّث إليه على طريقته ...

قال «تختخ» لـ «نبيل»: إن «زنجر» وجد شيئًا يريد منَّا أن نراه!

نبيل: وما هو هذا الشيء يا تُرى؟

تختخ: أظن أنه من الممكن أن يكون «عم سالم» ... إن «زنجر» يدرك بالضبط ما نُريد، ولعله تنسَّم رائحة «عم سالم» في الفيلَّا، ثم تنسَّمها مرةً أخرى هنا!

نبيل: إن ذلك يكون شيئًا عظيمًا.

تختخ: هل نعبُر الباب؟

نبيل: بالطبع ... لا بد من إنقاذ «عم سالم»، فبدونه لن نستطيع حل هذا اللغز العجيب ... لغز الأشخاص المجهولين الذين يعيشون في هذا المكان ... والعمل السري الذي يقومون به!

وبدون كلمةٍ أخرى اجتاز «تختخ» الباب وخلفه «نبيل»، وسارا في الطريق الضيق خلف «زنجر» الذي انحرف فجأةً في وسط الطريق إلى طريقٍ آخر رفيعٍ جدًّا بين البوص ... وفي نهايته شاهَد الصديقان كوخًا صغيرًا جدًّا من البوص يشبه البرميل.

نهاية البداية

تقدَّم الصديقان بهدوءٍ شديد ... برغم أنه لم يكن هناك أي صوتٍ يدُل على وجود أشخاص بالقرب منهما ... اقتربا حتى وصلا إلى باب الكوخ حيث كان «زنجر» يقف في تحفُّز ...

لم يكن الباب مغلقًا، فدفعه «تختخ»، وعلى ضوء الفجر المُتسلِّل من الفتحات المستطيلة بين البوص شاهَد رجلًا عجوزًا مُتكوِّمًا على الأرض ... وقد قُيِّدت قدماه ويداه، ولم يشُكَّ لحظةً أنه «عم سالم» ... وتأكَّد من ذلك عندما دخل «نبيل» وقال بصوتٍ مختنق: «عم سالم»!

أسرع الصديقان يفُكَّان وَثَاق الرجل العجوز ... ثم أوقفاه على قدمَيه، واستنَد عليهما للخروج من الكوخ.

تمَّ كل ذلك في هدوءٍ شديد وبسرعة، ولم تمضِ سوى دقائقَ حتى كان «عم سالم» قد استعاد نشاطه، وبدأ يستعمل قدمَيه بشكلٍ طبيعي ويسير مع الصديقَين ...

قال «نبيل» متسائلًا: ماذا حدث يا «عم سالم»؟

رد الرجل العجوز: لا شيء سوى أنهم خطفوني، وكانوا قد قرَّروا أن يأخذوني اليوم ويُلقوا بي في منتصف البحر لأموت غريقًا ... لم يكن قد بقي على الموعد الذي حدَّدوه سوى نصف ساعة!

تبادَل الصديقان النظرات، لقد كان الرجل يتحدث عن موته غريقًا بمنتهى البساطة، وكأنه موت رجلٍ آخر.

وعاد «عم سالم» يقول: لم أعُد مهتمًّا بالحياة، الموت أفضل لرجلٍ في سني!

نبيل: كيف تقول هذا يا «عم سالم»؟

عم سالم: هذه هي الحقيقة يا ولدي، لقد عشتُ نصف عمري الأخير أبحث عن شيءٍ مجهول وعن رجلٍ أعرفه، ولكنه ميتٌ حي، أو حيٌّ ميت، لا أدري، وفي النهاية ها أنا ذا لا أصل إلى أي شيء!

نبيل: هل تقصد «النجمة الخضراء»؟ وكيف غَرقَت؟

عم سالم: نعم … إنني لا أُصدِّق حتى الآن أن هذه السفينة الرائعة يمكن أن تغرق ببساطة وتختفي في قاع البحر … وتختفي فيها كنوز جدك … لقد مات جدُّك كسير القلب بسبب هذه الحادثة … وكنتُ من أقرب الناس إليه … وقد عشتُ أبحث عن هذا السر … ولكني لم أصل إلى شيء؟

تختخ: ومن هو الرجل المجهول الذي تقول إنه ميتٌ حي، أو حيٌّ ميت!

عم سالم: إنه قبطان السفينة «النجمة الخضراء» لم أكن أثق فيه قط … ولا أدري كيف سمحنا له بقيادة السفينة من فرنسا إلى هنا … لقد مرض القبطان الأصلي وكان اسمه «طه» فاضطُررنا للاستعانة بقبطانٍ فرنسي … وقد تسرَّعنا في قبوله، ولكن هكذا كانت مشيئة الله.

بعد نصف ساعةٍ كانوا قد أشرفوا على الفيلَّا … وكان بقية الأصدقاء يقفون بالباب، وهم يحملون أكواب الشاي وينظرون إلى الشمس وهي تصعد فوق البحر ككُرة من النار.

صاح الأصدقاء فرحين … لقد عرفوا جميعًا أن الرجل العجوز القادم ليس إلا «عم سالم» … إذن فقد انتهت المشكلة … وعليهم أن يقضُوا إجازةً طيبة.

ووضَعوا طعام الإفطار لـ «عم سالم» … وكوبًا كبيرًا من الشاي، وأقبل الرجل العجوز على طعامه بشهيةٍ مفتوحة، وسَعِد بالتعرُّف إلى الأصدقاء الجدد، وقال لهم: لقد كنتُ دائمًا أقول لـ «نبيل» أن يُحضر بعض أصدقائه معه … فليس هناك إجازةٌ طيبة إلا مع أصدقاءَ طيبين.

كالعادة، كانت «لوزة» هي السبَّاقة إلى الحديث عن المغامرات والألغاز، فسألَت «عم سالم»: ولكن يا «عم سالم» … كيف خطفك هؤلاء الناس؟

رد «عم سالم»: كنتُ أصطاد السمك في الفجر، كعادتي كل صباح؛ فهذا هو طعامي الدائم هنا، وقد اصطدتُ كميةً لا بأس بها، ووضعتُها في حفرة بها ماء …

صاحت «لوزة»: لقد رأيناها وأحضرنا السمك!

مضى «عم سالم» يقول: وظهر شبَحٌ أسودُ على الشاطئ، لا أدري من أين أتى؛ فمن النادر أن أُشاهِد أحدًا في المنطقة، وعندما نظرتُ إلى البحر رأيتُ قاربًا ضخمًا يقف في نفس

المكان الذي غَرقَت فيه «النجمة الخضراء» ... ودُهِشتُ جدًّا ... وعلى ضوء الفجر الخفيف لم أعرف من هو هذا الشبح، ولكنه اقترب مني، واستطعتُ أن أتبيَّن أنه يرتدي ملابس الغوص، ولا أدري هل خرج إلى الشاطئ بالمصادفة أم كان يقصدني شخصيًّا، كان جسمه كله مغطًّى بملابس المطَّاط السوداء، وكذلك وجهه، لم أستطع أن أرى أكثر من ذلك ... وقبل أن أتحدَّث إليه وجدتُه يُبرِز بندقيةً مما يصطادون بها السمك ... ووقفتُ مذهولًا، وقبل أن أتمكَّن من فهمِ ما حدَث فُوجئتُ برجلٍ آخر يبرُز من المياه ويربط عينيَّ بعصابةٍ سوداء، وسرت معهما لا أدري إلى أين، ولكن لكثرة ما عشتُ في هذه المنطقة أدركتُ أننا متجهون إلى حبل الرمال ... وسرنا نحو نصف ساعة، ثم نزلنا إلى بئرٍ بها ماء ... وطلبوا مني كَتْمَ نَفَسي ثم غُصْنا، وأحسستُ أنني أُدفَع إلى نفق، ثم عُمنا في هذا النفق حتى وصلنا إلى بوابةٍ حديدية ... وصَعِدنا ... وقاداني إلى سجن من البوص وقيَّداني فيه وخرجا.

وصمت «عم سالم» وهو يرشُف من كوب الشاي رشفة كبيرة ثم عاد يقول: وبعد ساعة تقريبًا حضر شخصٌ يبدو أنه أجنبي، وأخذ يسألُني عن سبب وجودي في هذا المكان باستمرار، وهدَّدني بالقتل إذا لم أُغادِر الشاطئ والمكان كله، وقلتُ له إن حياتي كلها انقضَت في البحر ... وعلى شاطئ البحر ... وإنني لا أستطيع الحياة بعيدًا عن البحر، وسمعتُه يتحدَّث مع بعض الأشخاص بلغةٍ لا أفهمها، ثم سمعتُ أحدهم يقول باللغة العربية: أفضلُ شيء أن نُغرِقه غدًا عند خروجنا للعمل، وتركوني بلا طعام ولا ماء حتى حضر شخصٌ قبل مجيئكم بنصف ساعة وهدَّدني مرةً أخرى ... ولكني لم أُذعِن لتهديده، فقال لي إنهم سيُلقونَني في البحر بعد نصف ساعة.

ولدهشة الأصدقاء ابتسم «عم سالم» ابتسامةً صافية وهو يقول: إنهم الآن في غاية الذهول ... لن يعرفوا أبدًا كيف هربتُ.

وساد الصمت بعد حديث «عم سالم»، وأخذ الجميع يفكِّرون، وقد كان تفكيرهم جميعًا في شيءٍ واحد: ماذا بعد ذلك؟

وكأنما كان «عم سالم» يقرأ أفكارهم فقد قال: إنني طبعًا لن أُغادِر هذا المكان مطلقًا، سوف أبقى حتى أعرف ماذا يحدُث هنا!

محب: وماذا يحدُث هنا يا «عم سالم» بالضبط؟ ... أو على الأقل ماذا تتصوَّر؟

ردَّ «عم سالم» على الفور: ما أتصوَّره هو شيءٌ واحد: أن هناك من يحاول العثور على كنز «النجمة الخضراء»، لقد غَرقَت السفينة وعليها كميةٌ رائعة من الذهب والمجوهرات، إنها ثروة رجلٍ شريف يحاول بعض اللصوص سرقتَها.

تختخ: ولماذا لا نُبلغ رجال الشرطة؟

عم سالم: لقد حاولتُ عشرات المرات أن أُقنع الجهات المسئولة بأن تبحث عن هذا الكنز، ولكنَّ أحدًا منهم لم يُصدِّقني، لقد ظنوا جميعًا أنني رجلٌ مخرِّف، وإذا لم يقتنعوا بكلامي فلن يقتنعوا بكلامكم.

كان منطق الرجل العجوز قويًّا، ولا يمكن نقضه بسهولة، وكان أمام الأصدقاء أحد حلَّين ... إما أن يرحلوا ويتركوا الرجل العجوز مع أحلام كنز «النجمة الخضراء»، وإما أن يبقَوا ويواجهوا الأخطار.

وقالت «نوسة»: من الأفضل أن نعقد اجتماعًا نقرِّر فيه ماذا نفعل.

عاطف: وأقترح قبل كل شيءٍ أن نقضي بعض الوقت على الشاطئ ... من غير المعقول أن نأتي لقضاء إجازة ثم تكون النتيجة هذه السلسلة من المغامرات بدون راحةٍ واحدة.

وافق الجميع على هذا القرار بحماس ... وسرعان ما ارتدَوا ثياب البحر وأسرعوا إلى الشاطئ ... وبقي «عم سالم» وحده في الفيلا؛ لأنه أراد أن ينام.

كانت الرمال في لون الذهب، والمياه في لون الزمرُّد، والشمس ما تزال تحبو في الأفق، فاندفع الجميع ومعهم كرة للَّعب والمرح، ونسُوا مؤقتًا الأخطار التي قد يتعرَّضون لها، واستمَروا يلعبون ويسبحون حتى ارتفعَت الشمس، وقرَّروا العودة إلى الفيلَّا للغداء، وعندما عادوا كانت في انتظارهم مفاجأة ...

ما هي هذه المفاجأة؟

وهل تجعلهم يحزمون أمتعتهم ويعودون إلى المعادي؟

أم تجعلهم يقبلون التحدِّي ... ويخوضون المعركة؟

هذا ما تعرفه في اللغز المثير القادم «لغز النجمة الخضراء».


هنداوي